ذكريات وأعلام

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

obeikandl.com

obeikandl.com

«مطبعة كريماديس» ✡ شارع محمد الطريس رقم 17 ✡ تطوان

رسالة من المستشرق بروكلمان
الى المؤلف

هالة في 7 رجب 1361

حضرة الاستاذ العلامة الشيخ السيد عبد الله كنون الحسني تحية واحتراما .

وبعد فقد قبلت كتابكم العزيز المسمى بالنبوغ المغربي في الادب العربي الذي أكرمتموني بارساله الي فابتدأت بقراءته واستفدت منه كثيراً في تاريخ الآداب المغربية مما فات بحثي الى الان. وارجو ان اصرف مضمونه العزيز لفائدتي وفائدة أصحابي المستشرقين في استدراك كتابي الاول في تاريخ الآداب العربية الذي هو الان مطبوع في مدينة ليدن. وكذلك قبلت كتابيكم في شرح الشمقمقية ومقصورة انكودي وقرأت ما كتبتم في مقدمة الكتابين في احوال المؤلفين وابتهجت بظرافة المقصورة، وثقافة الارجوزة المشهورة، فان كتبكم لم يبلغ الي صيتها في هذه الازمان المشوشة لولا ان ارسلتموها الي.

وتفضلوا ياحضرة السيد العزيز بقبول احترامي وتحياتي العاطرة والسلام.

كارل بروكلمان

obeikandl.com

II

ابو القاسم الزيباني

obeikandl.com

obeikandl.com

أبو القاسم الزياني

عالم أم أديب؟ نسبه، ابوته، ولادته، نشاته وطلبه العلم، تحصيله، استعداده في التاريخ والعلوم الاخرى من كتب جده، رحلته الاولى مع والده للحج، نكبته الاولى ما استفاده في هذه الرحلة، خدمته للسلطان، نكبته الثانية، رضى السلطان عنه ورجوعه للخدمة، سفارته الى اسلامبول ونجاحه العظيم، تقلبه في الوظائف موت السلطان وتولية اليزيد، انتقام اليزيد منه وتوالى النكبات عليه، اعتزاله الخدمة واعتكافه بالعباد في تلمسان، رحلته الثالثة، عوده الى المغرب وتوليه الوزارة. نكبة السلطان له من جديد، انقطاعه للكتابة والتأليف، كتبه، شخصيته في كتبه، اسلوبه في الكتابة والشعر، وفاته ومدفنه.

ربما كان ادخال هذه الشخصية في عداد العلماء اولى من ادخالها في عداد الادباء، ذلك ان الزياني مؤلفات في التاريخ والجغرافية وبعض العلوم الاخرى لا يصح الاغضاء عنها ولا ينكر احد أهميتها بينما آثاره الادبية ليس لها قيمة من الوجهة الفنية ولاكن بما انه ظل طول حياته ينافس معاصريه من الادباء ويدعي التفوق عليهم ويخوض في فنون الادب من كتابة وشعر حتى ان له ديوانا كبيرا وكان يشتغل في البلاط كأحد الكتاب، فانا ندرجه في قائمة لادباء ولو بالمعنى العام، اذ مما لا ريب فيه ان له قلما سيالا وفكرا جبارا فيتناول الحادث مهما كان نوعه ويبسطه ويعلق عليه فعل احد الكتاب المثقفين من أهل عصرنا الحاضر، فلا يضره كون اسلوبه في بعض الاحيان يقرب من العامية ولا انه يلحن

ولا يقيم وزن العروض ونحو ذلك من الهنات، فهذا أديب الشام الاوحد بل كاتب العرب الممتاز بتجديده وابتكاره في الادب ما لم يات به أحد قبله ولا لحقه أحد بعده أعني جبران خليل جبران، كثيراً ما يزل قلمه ويرتكب أشنع الاخطاء اللغوية والنحوية مع انه عربي وفى هذا العصر الذي احييت فيه اللغة حتى سهلت على الاجانب عنها من الاعاجم والفرنج وغيرهم وليس ذلك بمخرجه عن ان يكون أديبا فذاً بل من أعظم مفاخر العرب فى هذا الشأن.

والزياني بالزاي مفخمة أو بالصاد المشممة زايا كحفظ صراط فى قراءة حمزة - كما يقول الناصري ويكتبهاهو كذلك وبتخفيف الياء - نسبة الى قبيلة زيان من أهل الاطلس المتوسط، هو أبو القاسم او بلقاسم كما كان يوقع هو ابن احمدابن الفقيه الاستاذ النسابة ابي الحسن علي بن ابراهيم.

كان مقرجده هذا بقرية ءاركو قرب ءاذخستان وبها قرأ عليه العلامة اليوسي القرءات السبع ثم نقله السلطان مولاي اسماعيل الى حاضرته مكناس وسبب ذلك انه لما نزل بآذخستان واجتمع عليه الاشراف الذين بآركو قال لهم: دلوني على رجل صاحب فقه ودين يؤمني فى الصلوات فقالوا له ليس بهذا الجبل اتقى من سيدي علي بن ابراهيم فاتوا به فكان امامه في المحلة ولما قفل اخذه معه، قال

حفيده المترجم» فهذا سبب انتقال جدنا من آرگو الى الحضر» وقد بقي هو واولاده على هذه الحال الى ان توفي بها فانتقل ولده احمد والد المترجم الى فاس سنة 1139 عند وفاة السلطان فاستوطنها وولد له بها ابو القاسم سنة 1147.

وقد نشأ في حجر والده وقرأ القرآن واشتغل بطلب العلم على شيوخها احمد بن الطاهر الشرقي وهو أول من اخذ عنه ومحمد بن الطيب القادري وعبد القادر بوخريص وعمر الفاسي ومحمد بن ابراهيم والناودي بن سودة ومحمد بناني الا انه انقطع عن مجلس الفاسي بسبب شيطنة التلاميذ حيث ذكروا له عنه اشياء كان يتهم بها، ولعلها مسائل الخط والجدول، وكانوا في نزهة فقال له الفقيه: «يافلان أرنا شيئا مما تعلمه ولا نعلمه نحن» قال وصمم علي في ذلك فخجلت منه وقلت لم يتهيا لي عمل الان، فقال: «واو ما خف» فقلت لم يحضرني شيء الان. فكان ذلك سبب انقطاعي عنه ولازم محمد بن الحسن بناني ونسخ حاشيته على الزرقاني فكان يطالعها ويحضر مجلس ابن ابراهيم قال فكان يشمئز من أبحاثها وذلك يدل على انه كان يورد تلك الابحاث على الشيخ فعل شياطين التلاميذ ويدل بالاحرى هو والواقعة التي قبله على نجابة الزياني وحسن تأتيه الاشياء منذ صغره.

ومن دون علم الجدول وغيره من العلوم السرية التي ربما كان اخذها عن والده، فان ما درسه على هؤلاء العلماء هو الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. وعلى كل حال فان التاريخ والنسب والجغرافية التي هي بضاعته المنتقاة لم تكن مما درسه في القرويين ولا مما اخذه عن شيوخها المذكورين وانما سرت عدواها اليه من جده علي بن ابراهيم المذكور آنفا وقد كان كما قال هو عنه «انفا استاذا عشريا نسابة اخباريا لم يكن في وقته من يلحقه في النسب» واليوسي نفسه يقول في حقه «عنه اخذت عمود اجدادي الى يوسي ابي القبيل نه كان نسابة الوقت».

وقال حفيده المترجم «لما طالعت الكناش الذي فيه رفع نسبه الى ابى القبيلة زيان ومنه للجد مالو الصنهاجي، ومن مالوا رفعه الى اليسع الذي اسلم على ما في تاريخ سليمان بن سابق المطماطي نسابة البربر ومنه الى صنهاج ابو صنهاجة في الجاهلية، ومنه الى بربر مازيغ بن نبذ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام (١) وهذا سبب اعتنائي بالبحث عن كتب التاريخ والانساب لما وجدت فيه من تقييداته رحمه الله» فكشف بهذا عن سر توجهه هذه الوجهة

---

(١) هكذا بالاصل من الترجمانة، ولا يستغرب من اسلوب الزياني عدم الارتباط بين الجمل.

من البحث وافاد ان كل ما ادركه فيها من تفوق ونبوغ انما هو نتيجة جده واجتهاده.

ولا يبعد في نظرنا ان يكون هذا الكناش الذي حوى معارف جده هو الذي لقنه تلك العلوم السيمية من سر الحرف والجدول وغيرهما وان لم يذكر ان جده كان على بال منها لان عادة اهل هذه العلوم اخفاؤها وعدم البوح بها الا لخاصة الخاصة من احبابهم، والمترجم نفسه تنصل منها وتبرأ لما خاطبه شيخه ابو حفص الفاسي في شانها مع انه كان يرمى بها بل لم يملك ان اعترف بها ضمنا عند ما تكلم في الرحلة على بعض المتمشيخين الذين يخدعون الناس بالحيل فقال:

«كيف لو علم منها ما يعد من الكرامات، ومن يشاهده لا يشك انه من اكبر العلامات، اذاً لادعى النبوة وانواع الرسالات فاني اعرف الرجل يلقي من يده السبحة فتسعى اليه بعد الاستدعاء، ولا يرتكب هذا التدليس والافتراء، ويتكلم على المصباح الموقود فيطفى، ويضع الحاجة (الشيء) امام القوم فتخفى، ويتكلم على المصباح الذي انطفا فيشتعل، وعلى النائم فينفعل، ويصب الماء في الاناء فيجمد، ويقرأ على النار فتخمد، ويكتب المكاتب لمن بالشرق ويلقيها من خلفه، ثم يفتحها فتوجد اجوبتها كل على وفقه، ويستخرج

اسم الرجل المجهول واسم ابيه وامه، وقبيلته وفصيلته وقومه، ويلقي على النحاس المذاب غبارا، فيصير نضارا، وهو زاهد في ذلك (يعني دعوة المشيخة) ورع في حيز الاهمال، لا يلتفت لمنصب ولا جاه ولا مال، مقبل في بيته على تسويد الاوراق، بماشاهده في الجولان بالآفاق فمن يكون هذا الرجل غير ابي القاسم؟

ولا يقال انه انما تعلم هذه العلوم بمصر على ما سياتي لان هذا اعني وقوفه على كناش جده كان قبل غيابه لمصر، نعم في مصر زاد فيها براعة واتساعا وتفننا واطلاعا وادا فيكون تخرجه من مدرستين، مدرسة القرويين وقد قرأ فيها علوم الدين واللغة ومدرسة العائلة وقد قرأ فيها التاريخ والنسب وسائر العلوم الخفية.

ولما اشبع نهمته من المدرستين اتيح له سبب آخر ليدخل مدرسة جديدة اوسع دائرة واعظم مفعولا من كل ما عداها وهي مدرسة السياحة، فان الفتن التي توالت على المغرب منذ وفاة السلطان اسمعيل واضطراب حبل الامن وعدم استقرار الاحوال على ماعهد من قبل، جعلت والد مترجمنا يفكر في الرحلة بغية المجاورة والاستقرار نهائيا في المدينة المنورة.

وقد نفذ هذه الفكرة في عام 1169 وكان عمر ولده المترجم 23 سنة. فباع كما يقول ولده في سذاجة دارين كانتا له بفاس

وكتبا لوالده الاستاذ علي وجمع من ذلك ما فيه بلاغ ومقنع. وكان المترجم يساعد والده ويأخذ بيده في تدبير امور السفر وهو على طيشه وحدته كان محبوبا من والديه لانه لم يبق لهما غيره.

ولما بلغوا مصر كان مرادهم ان يصحبوا ركب الحاج الا ان بعضهم اشار على والده بركوب البحر لكونه اقرب مسافة واقل مشقة واشترى له سلعة بقصد التجارة ففي مرسى الينبع تكسر المركب وضاعت السلعة وتلفت الاسباب وحمدوا الله على عتق رقابهم وكانت هذه النكبة هي اولى النكبات السبع التي اصابت المترجم واثرت فى حياته تاثيراً عظيما، وهناك اخرجت والدته من حزامها 300 دينار لم يكن لهم بها علم وانما كانت ادخرتها لمثل هذا اليوم فمنها اكتروا لجدة ومكة واقاموا الفرض كما يجب وتوجهوا الى المدينة بقصد الزيارة فقط لان المجاورة مع ذهاب البضاعة التي كان معولهم عليها اصبحت مستحيلة، فرجعوا الى مصر وكانوا قد تركوا بها بعض الاسباب عند صاحبهم بقصد بيعها، فباعها وتحصل فيها مبلغ 600 ريال، فبها اصلحوا الاحوال واستعدوا للرجوع الى المغرب حيث بلغهم خبر وفاة السلطان مولاي عبد الله وبيعة مولاي محمد.

وفي الاسكندرية لم يجدوا مركبا قاصداً لاجل الحرب القائمة

بين اسبانيا وفرنسا وبين الانجليز المسماة حرب السبع سنوات، وكان القرصان في نشاط عظيم فاكتروا مركبا الى الكُرنة (ليكورن بايطاليا) حيث اقاموا اربعة اشهر ثم توجهوا الى مرسيليا ومنها لبرسلونة فاقاموا بها حيث كان الفرنسيون محاصرين لجبل طارق، وبعد رفع الحصار ذهبوا الى تطوان ومن ثم الى فاس فدخلوها وليس معهم الا سبعة مثاقيل.

كان قد مر على خروجهم من فاس نحو الثلاث سنوات راى مترجمنا فيها كثيراً من بلاد الشرق والغرب ودرس احوال امم كثيرة واستفاد معلومات مختلفة لم يكن ليحصل عليها وهو مستقر بفاس متردد بين دارهم والقرويين واعظم ما حصل عليه بالقاهرة في بيت صاحبهم الذي كان نزولهم عنده هو تعلمه من ابن هذا الصاحب لمسائل من علم الرمل والسيميا اضافها الى ما كان عنده من هذه العلوم السرية ورجع بذلك فرحا مسروراً يقول لنفسه حجا مبرورا وهاك عبارته في هذا الصدد:

«وفي اقامتنا بمصر كنت اجالس بالبيت ابن ذلك الصاحب، واشاهد منه عجائب كان له يد في علم الرمل وعلم السيميا، ومن راى تصوراته يحسب انه من الاولياء فشغفت بفنه واتخذته شيخا ولازمته حتى ملكت لبه بالسخا، فجاد هو ايضا بما عنده في الجريب،

وافادني في امد قريب، واوقفني على ما في علمه من خواص المعادن وما ينشأ عنها من الاسرار والعجائب، التي يبلغ المرء بها اعلى المراتب، واطلعني على ما يلحق بها من الحيل التي يستعملها المشعوذون، ومن بحرها يستمدون فمدت بذلك مسرورا، وقلت حجا مبرورا.

ولما استقروا بفاس عاد المترجم الى القراءة كما كان ثم سال عن رفقائه في الاندلس والطلب كاحمد بن ناصر الغياثي والغزال وابن الوزان وسكيرج وابن عثمان ومحمد بن الشاهد وسعيد الشليح الجزولي فوجدهم قد تعلقوا بخدمة السلطان. وكان بينه وبين هذا الاخير اعني الشليح مودة كبيرة اذ طالما عكفا على المطالعة معا وسرد كتب التاريخ التي كان للشليح ولع كبير بها، فلما بلغه خبره وما صار اليه امره عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله شرهت نفسه للحاق به وتعلق هو ايضا بالخدمة ولم يجد نصح والده له ولا نهيه عن ذلك شيئا وهكذا اصبح ابو القاسم الزياني كاتبا في البلاط العلوي ومن رجال الدولة المعدودين.

انما لم يكد الحظ يبسم له حتى قطب في وجهه قطوبا شديدا لينكبه الدهر نكبته الثانية ففي عام 1182 طرده السلطان وبقي مهددا بالقتل بعد ما مرت له عشر سنين في الخدمة والطاعة.

وذلك بسبب وشاية القائد ابي القاسم الزموري به حيث اتهمه بان له يدا في ثورة (آيت ومالو) التي لم ترحب بالقائد المذكور وردته على اعقابه ناكصا مما اضطر السلطان الى استفسار القبائل وخروجه بنفسه الى قتال القبيلة المذكورة، وتبعا لاشارة القائد قسم السلطان جيشه اثلاثا وعين لكل ثلث مكانا يرابط فيه غير ان هذه الاشارة دلت على جهل القائد بالاماكن التي يقع فيها القتال وتعريضه الجيش للانكسار وفي ذلك هزيمة السلطان وضياع هيبة المخزن، فلم يسع السلطان الا ان استدعى الزياني الذي كان منبوذاً مطرحا في المحلة فاسرع نحوه وبين له خطا الفكرة وفشل الخطة ولم يتورع ان يقول له ان ابا القاسم الزموري رجل مشؤوم، ثم بين له السبب الذي نفرت به آيت ومولو عن القائد حتى عرفه وحينئذ اقبل عليه السلطان واعتمده في انقاذ الموقف باستخدام جاهه عند تلك القبائل فما عتمت ان القت السلاح ودخلت في الطاعة.

ورجع السلطان ظافرا منتصرا من غير ان يريق دما حراما او يزهق روحا بريئة. وعرف اخلاص كاتبه فرفع منزلته على اقرانه وصار يقدمه في المهمات واخلف له ماضاع، وخوله المماليك والاتباع، وربما جعله رئيس ديوان الكتبة على ما تعطيه عبارته،

في حين ابعد خصمه الواشي به وجعله بمكان الاهمال.

ثم في سنة 1198 توجه السلطان الى تافيلالت حيث كان عمه الحسن بن اسمعيل قد اعصوصب بشيعة من قبائل الصحراء وكثر ايذاؤه لابناء عمه من الاشراف فافرده عن تلك القبائل وكسر شوكته وبعث اليه بابي القاسم الزياني يعرض عليه السكنى بمكناسة وينفذ له ما يكفيه فقضى المهمة على احسن حال وانقلب به الى مكناسة من حيث صحب معه بامر من السلطان اولاده الثلاثة مولاي سليمان والحسن والحسين وعددا من المدافع والهاريس والقذائف وطائفة من الطبجية الالمان والفا من عسكر الثغور فقضى الغرض كما ينبغي ثم وجهه السلطان ايضا الى الغرب لياتيه بجيش من عبيد الثغور ويلقاه بهم الى مراكش ففعل ومن ثم خرج السلطان الى الصويرة بقصد الفرجة وجمام النفس واشخص معه جماعة من العلماء والادباء كان ابو القاسم من جملتهم فقضى هناك الربيع على احسن حال.

وفي عام 1210 ارسله السلطان سفيرا الى الخليفة عبد الحميد الاول بالاستانة فركب البحر من الصويرة هو وسفير تركي اسمه اسمعيل افندي كان عند السلطان، ونزل بمالقة ثم ركب منها قاصدا دار الخلافة ولاكن المركب عطب فالجأ الى تونس بقصد

اصلاحه ونزل عند بايها حمودة باشا الذي اكرم نزله ثم بعد عشرة ايام اصلح المركب وتوجه ثوا الى طيته، فحين عاين السفير التركي شواطئ بلاده استاسد وجعل يسب المغرب وسلطانه فنهاه الزياني فلم ينته، فحينئذ قام اليه واخذ بلحيته واراد ذبحه متقربا به الى الله - كما يقول - الا ان رئيس المركب خلصه من يديه وشفع فيه فتركه. ولا نحتاج الى القول ان الزياني قام بمهمته كما يجب وان ولاة الامر في الاستانة قد اعتنوا به غاية وانه قابل الخليفة في غير الموعد المحدد لمقابلة امثاله من السفراء رعاية لوقوع الحرب بين الدولة العلية وروسيا ومحاولة الدولة السلف من سلطان المغرب ومما يزيد في اعتبار الزياني انه لما عرض عليه الوزير التركي الاول فكرة السلف رحب بها وايدها وقال ان سلطاننا له رغبة في الجهاد ولولا مشقة البحر وبعد المغرب لسعى للجهاد بنفسه، واما المال فانه يعطيه بلا سلف.

وهكذا تقرر رجوع الزياني ومعه سفير تركي الى المغرب بعد ما قضى 100 يوم في الاستانة وزار جميع مشاهدها وآثارها من مساجد ومدارس ومكاتب ودار السكة والخزينة وغيرها ووصف كل ما وقعت عليه عينه وسمعته اذنه وصفا دقيقا شيقا يطول تتبعه. وكان ممن اجتمع به هناك الشيخ كمال الدين لاشا وقرأ

عليه تاريخه لتركيا واختصره.

وفي اثناء الطريق وقع من السفير التركي مثل ما وقع من سابقه برغم توصيته والتأكيد عليه ان يكون عند نظر الزياني. ولما شعر به انه يراود رئيس المركب على الدخول الى مرسيليا التي لم يشأ الزياني التعريج عليها كرها للحجر الصحي، جعل يراقبه وينظر في الخريطة حتى اذا وصلوا للمحل الذي يتوجه منه الى مرسيليا طلع فوق (القامرة) وجلس ووقف خدامه بسلاحهم فلما اراد رئيس المركب ان يتوجه نحو مرسيليا قال له: ابق على طريقك، والله لو درت بالمركب لاقتلنك! وهكذا انتصر على السفير التركي مرة اخرى، وسجل النزق والطيش على السفراء الترك مثل ما كان يقع من بعض سفرائنا كالذين تصرفوا في مال الفدية الذي وجه به السلطان هدية الى الخليفة لما لم يقبل اهل مالطة فداء الاسرى الترك الذين عندهم فلما تنبهوا لسوء تصرفهم انقطعوا بالمشرق خوفا من السلطان. ولهذا لما وجه السلطان الزياني قال له: اني اخترتك لتشفي غليلي في امرين: أحدهما تقبض على اولائك الظلمة الذين سرقوا من مال الله. والثاني: تسفه هذا الباشدور (السفير الذي ذهب معه) الذي كذب علي وتعرفهم انه لا يصلح للسفارة بين الملوك ويلزمه ما يلزم اصحابي الذين سرقوا من مال الله

ولما لقي الزياني السلطان ناوله كتابا من عند الخليفة يقول فيه «وبعد فانه قد وصلنا من مقامك الاسمى عشرون سفيراً واحسنهم عقلا ونبلا وسياسة وادبا فلان الذي أدى لنا رسالتك وهديتك بأدب وانفصل عنا بأدب فمثله من يكون سفيراً عن الملوك فان اقتضى نظرك توجيه سفير من اطرافك فليكن هو فان ظاهره و باطنه سواء» وما ندري هذا نص الرسالة أو تقرير من الزياني وعلى كل حال فقد سر السلطان بما بذلك سروراً عظيما ودعا له بخير واثنى عليه ونوه به امام الجمهور.

ثم استشاره فى مقدار المال الذي يوجهه اعانة للخليفة على الجهاد لا سلفا فقال مليونان فاستكثرهما السلطان. فبين له انهما مبلغ ستمائة الف وخمسين الف ريال فقط من سكة المغرب لان سكتهم ربعها فقط فضة والباقي نحاس، وسماع المليونين تعلو بهما همة السلطان عندهم فاستصوب رايه ودعا له وامر بارسال العدة المذكورة جعلها سبائك فى اربعة صناديق ووجهها على طريق اسبانيا ثم فرنسا فجاء الجواب بوصولها في ستين يوما والسفير التركي لا زال عنده مع كاتب آخر قدم بعده.

واما الزياني فقد تقلب بعد ذلك فى عدة وظائف من قيادة وولاية على المدن وتدريب الجنود البحرية فضلا عن السفريات

المتعددة بين وجدة وتازة ومكناس وطنجة وتطوان والعرائش وغيرها. ثم في سنة 1202 سمه السلطان واليابتافلالت ولما اظهر التردد قال له: «طب نفسا ولولا اني احبك ما وليتك على اولادي واهل بيتي» فبقي هناك ثلاث سنين الى ان توفي السلطان، وكان المولى سليمان اقترح عليه تاليف تاريخه الترجمان المعرب وهو بسجلماسة (فبدا يشتغل به من حينذاك).

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الله وولي ابنه اليزيد الذي لم يكن راضيا عن الرياني بدا سوء الطالع يصاحب هذا الاخير فلم ينشب ان زجه اليزيد في السجن وصادر املاكه الا دارا صغيرة ابقيت لسكنى عياله، وكانت هذه هي النكبة الثالثة وبعد مدة اخرج من السجن وولاه السلطان على اكادير ثم رده وكلفه بعدة مهمات ولاكنه عاد فتقبض عليه وضربه حتى غاب عن الوجود واخرج فيه مسدسه ولاكنه نجا من الموت لعدم حضور اجله وكان ذلك في العرائش فأمر بسجنه هناك. قال «ولم افق من غشيتي الا بعد ثلاثة ايام فوجدت الحديد على رجلي والسلسلة في عنقي ويدي مكسورة واصابعي كذلك، فكان بعض الاحبة ياتيني ليلا بطبيب يعالج يدي وراسي وجراحتي» ولعل هذا الكسر الذي اصابه في راسه هو الذي يتحدث انه طارت به جمجمته فجعل

مكانها طرف من القرع فاحتف به اللحم وتماسك.

ثم بعد شهر استقدمه السلطان للرباط وكان مراده قتله فسلم ايضا بحفظ الله بعد تجريده من الثياب ويأسه من الحياة، وكانت هذه هي النكبة الرابعة من نكباته السبع. وبقي مسجونا في الرباط الى ان توفي اليزيد فسرحه اهل الرباط برغم امتناع حاكمهم ومن ثم قصد فاس حيث حضر بيعة المولى سليمان.

كان المولى سليمان يعرف كفائته ومقدرته فولاه على وجدة ليصلح ما فسد من احوالها فان عرب انكاد كانوا قد عاثوا في تلك النواحي فسادا ونهبوا الحجاج ولم ير السلطان خيرا من تولية الزياني لقسوتهم وكبح جماحهم الا انه كره ذلك لعلمه بما فيه من المشقة واستقال فما اقيل فتوجه اليها مرغما وخرج معه ركب التجار الذي كان محصورا بفاس وما وصلوا الى ارض انكاد حتى عدا عليهم العرب وقتلوهم ونهبوا الاموال والمتاع ولم ينج منهم الا القليل، وكانت هذه نكبته الخامسة.

وقد انسل منها فارا بجلده سالما من الخدمة السلطانية فتوجه الى وهران ثم الى تلمسان حيث اقام بجوار العباد سنة ونصفا مشتغلا بالمطالعة والتقييد والتاليف، واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تعد اليوم في حكم المفقودة كتاريخ سليمان بن اسحاق

المطماطي وتاريخ هاني بن يصدور الكومي وتاريخ كهلان بن ابي لؤي الاوربي في انساب البربر وايامهم في الجاهلية والاسلام لانهم كانوا نسابة البربر وتاريخ العقباني في دولة بني زيان وتاريخ ابن مرزوق الذي سماه نفي الوسن في محاسن اي الحسن وتاريخ السلطان ابي حمو موسى الزياني صاحب تلمسان الذي سماه واسطة السلوك في سياسة الملوك الى غير ذلك.

ثم تجدد عنده باعث السفر والرحلة ففكر في زيارة الاستانة وبلاد المشرق متعهدا تلك الديار ومتفقدا ما له بها من الاصحاب فذهب الى وهران ثم الى الجزائر ثم الى قسنطينة ثم الى تونس حيث احتفل به الولاة والاعيان والعلماء في كل منها، وفي فاتح جمادى الاولى من عام 1208 ركب متن البحر الى الاستانة ووصل اليها بعد معاناة الاهوال، فقوبل بمزيد الترحاب ثم توجه الى الحج مع امير الركب ولقي بمكة احمد الجزار والي عكا، فرغب اليه في الذهاب معه الى الشام بسبب ما راى منه من البراعة في علم الجدول وغيره من العلوم السيمية وكان الجزار مولعا بها فراوغه الزياني حتى خلص منه، كما لقي الشيخ جعفر الهندي وكاشفه بما في ضميره واخبره بما سيصيبه من شدة في نفسه وماله ورجوعه الى المغرب ونكبة السلطان له ثم نجاته من كل

ذلك. فعاد الى مصر مع ركبها وصحبته جاريتان حبشيتان كان قد اشتراهما من المدينة.

وفي كل هذه الانتقالات كان يقابل الوجوه والصدور من رجال الدولة وأهل العلم ويحتفون به غاية الاحتفاء ويتذاكرون معه ايام العز والهناء في مدة السلطانين عبد الحميد الاول ومحمد بن عبد الله. وممن اجتمع به في مصر من اعلماء هذه المرة المؤرخ الجبرتي واسماعيل العباسي وسواهما.

وفي مصر وقع له حادث خطير كاد يذهب بحياته حيث ركب النيل في نزهة مع احد الاغوات فانقلب المركب وغرق كل من فيه وسبح رحالتنا جهده حتى خارت قواه ثم انقذه اهل مركب آخر كانوا على مقربة منه واوصلوه الى الشاطيء ومات الاغا والناس آخرون فكان هذا مصداق نبوءة الشيخ الهندي عن الشدة التي تصيبه في نفسه.

ثم عزم على الرجوع الى المغرب فركب من الاسكندرية مركبا كان متوجها الى ازمير بشحنة من القمح يعود بعدها الى الجزائر حاملا للجنود ولاكن الريح عاكسته فدخل الى جزيرة رودس ومنها الى انطاكية حيث بقي بها شهرا توجه رحالتنا فيه الى القدس الشريف ثم الى دمشق زائرا ومتبركا والقي بهذه

الشيخين كمال الدين الغري وسعدالدين النابلسي حفيد الشيخ عبد الغني الشهير، ثم توجه المركب الى ازمير فدخلها الزياني ومعه فضلا عن البضاعة عشرون الف قرش نقدا تركيا فتوقف مامور الجمرك فى تسليم البضاعة حتى اعلم بحيثية الرحالة وماضي مجده في بلاد الترك فسلمها.

ولم يزل الزياني هناك في عز واحترام مدة ستة أشهر اذ كان السفر قد تعذر عليه بسبب الوباء العام وقلة المراكب. ولما عادت المياه الى مجاريها عول على السفر وكان قد اشترى من ازمير بما معه من المال بضاعة من الحرير فشحنها فى مركب ذاهب الى الجزائر وتخلف هو لاجل امتلاء المركب بالجند فذهب في مركب آخر الى تونس حيث وضعوا في «الكرنطينة الشنعاء» الممنوعة عرفا وشرعا، كما يقول هو. وكانت له جارية على وشك الطلق فاشفق من حالها وكتب يتشفع الى بعضهم فلم يجده شيئا. ومن الليلة القابلة جاء الطلق للجارية فكان هو القابلة وولد له ابن سماه بعبد السلام ثم انشأ قصيدة في ذم هذه الكرنطينة ومن وضعها، ولا شك انه كان يتذكر ايام الصولة فى رحلته السابقة حين وقف هو واصحابه بسلاحهم يهددون رئيس المركب ويصرفونه عن الدخول الى مرسيليا خوف الكرنطينة ويتمنى لو تاتى له ان يفعل

مثل ذلك حتى ينتقم من هؤلاء الولاة القساة، ولاكن حيل بين العير والنزوان وقد كبر الرحالة وانهكت قواه فلم يبق له الا الرجوع الى سلاح اللسان والطعن به بدل الطعن بالسنان.

ثم بعد النزول الى تونس ماتت الجارية بالوباء وتركت الولد ولم يجد من يرضعه الى ان جاءه رجل مغربي مات له صبي وبقيت امرأته بدون رضيع فدفعه لها وسافر الى قسنطينة فلم يجد الوالي بها ثم الى الجزائر وكان انما باع لاجل ذلك نسخة من صحيح مسلم بخمسين محبوبا اشتراها من مصر بمائة، ولما دخل الجزائر علم ان بضاعة الحرير لم تصل وان المركب اخذه القرصان فسلم الامر الى الله وبقي خاوي الوفاض لا يجدما يكمل به اجرة الحمار لولا ان القاضي أبا عبد الله بن مالك وصله وباشره بما اصلحه وبقي منتظرا المركب نحواً من سبعة أشهر. وكان صاحبه يباشر قضية الاحجار والسلعة مع العدو وادعى انه تونسي، وتونس كانت في مدة صلح معه فأحرز المركب والسلعة وسلم الجند وبذلك وصلت الى الزياني بضاعته سالمة فانتعش بعد الانتكاس وعزل على الاقامة بتلمسان وكتب لاهله بفاس يأتونه اليها.

وقد فرح اهله واصدقاؤه برجوعه وكانت قد انقطعت اخباره عنهم ولاجلهم رغبوا اليه في الرجوع الى فاس ولم يرسلوا اليه عدا

جارية واحدة للخدمة والسلطان نفسه كتب له يامره بالرجوع ويطمنه ويعفيه من الخدمة التي من اجلها هجر المغرب. ولاكنه ما وصل الى فاس ولقي السلطان حتى عرض عليه ولاية العرائش فحاجه بكتابه فحجه. ولاكنه عاد فطلب منه بالحاح ان يذهب الى تفتيش مراسي المغرب ومراقبة عمالها. ولما كان هذا الوظيف تكليفا موقتا قبله وقضاه بنجاح ثم كلفه ايضا بمهمة اخرى وقتية في مراكش وبعد رجوعه الزمه خدمته فقلده الكتابة والوزارة والحجابة وبلغ الى اوج مجده واستقر في برج سعده وذلك سنة 1213

ولم يزل على هذه الحال مدة من السنين الى ان قلب الدهر له ظهر المجن وحصل منه الملل وكثرت به السعايات فنكبه السلطان وانزله من على منصة سائر هذه الولايات سنة 1224 وكانت تلك نكبته السادسة. ثم في سنة 1233 مات ولده البار كما يقول هو. وانظر هل هو الولد الذي قبله في المحجر الصحي بتونس وماتت امه في تلك المدينة او غيره. وكان ابن زيدان في كبر من سنه ومحنة من اهمال السلطان له فعظمت عليه المصيبة وتمت بذلك نكباته سبعا.

على ان هناك نكبات اخر قد مرت الاشارة اليها وهي غرقه في نيل مصر ودخوله المحجر الصحي بتونس وكان يكرهه أشد

الكراهة وموت الجارية وضياع الحرير وهو بالجزائر على اشد حالات الفقر ولو عدت هذه مع تفاصيل نكبات اليزيد اله لبلغت نكباته اكثر من عشر.

بعد نكبة السلطان له عزم على الرجوع الى المشرق مرة رابعة ثم ثناه عن عزمه بعض المواعظ والحكم التي قرأها في القصيدتين الفريدتين اللتين جمعتا من السياسة الدينية والدنيوية - في نظره على الاقل - ما فيه بلاغ للعاقل، وكفاية للعامل، وهما القصيدة الزينبية لصالح بن عبد القدوس: صرمت حبالك بعد وصلك زينب، الخ. وان كان هو نسبها لاثير الدين المعروف بالوزير المغربي، وقصيدة ابي الفتح البستي: زيادة المرء في دنياه نقصان.. الخ

وعلى كل حال فان لهاتين القصيدتين فضلا كبيرا على مؤرخنا وعلينا ايضا حيث حملتاه على الاستقرار والعزلة ونبذ الخلق طرا والعكوف على التقييد والتاليف حتى ترك لنا هذه الآثار الخالدة والكتب المهمة التي ما كنا نرى منها شيئا لو ذهب يتقلب في البلاد شانه في اول مرة وثانيها وثالثها.

في هذه الفترة المباركة من عمره على تقدمه في السن وانكسار خاطره بسبب النكبة اكمل كتبه الخمسة عشر، ما كان بدأ به منها قبل وما لم يفكر فيه الا حينئذ.

واعظمها تاريخه الكبير الذي سماه (الترحمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) وهو تاريخ عام اراد ان يقف بـه فى صف المؤرخين الكبار كابن خلدون وابن الاثير وابن جرير الطبري وغيرهم. وقد جعله من بدء الخليقة الى نهاية عام 1228 فاستهله بمقدمة فى سياسة الملك ثم تاريخ آدم وسلالته الى الطوفان واولاد نوح فالدولة الفارسية فالحميرية فالفراعنة فالاسرائيليين فاليونان فالرومان فتاريخ البعثة حيث توسع قليلا ثم الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين الى هجوم التتار فالفاطميين فالاغالبة فالايوبيين فالاتراك العثمانيين الذين انبسط في الكلام عليهم مستفيدا من المعلومات التي اخذها عن تاريخ الشيخ كمال الدين الذي لقيه بالاستانة كما سبق. وهنا انتهى القسم الاول من الترجمان.

وبدأ القسم الثاني بتاريخ الادارسة فى المغرب فمغراوة وبني يفرن فالمرابطين فالموحدين فالحفصيين فالمرينيين فالزيانيين فبني الاحمر فالسعديين فالعلويين ثم فصول فى شرفاء المغرب فجامعة في الدول التي لم تعترف بالخلافة فخاتمة في سفارته والبلاد التي زارها.

وقد قدمنا انه في ايام ولايته على سجلماسة فكر في وضع هذا التاريخ وذكر فى الترجمانة انه بدأ به هناك وانه كان يعرض فصولا منه على السلطان مولاي سليمان وكان اميرا اذ ذاك فكان يشجعه ويحضه على اكماله كما تقدم انه فى مدة انقطاعه بتلمسان

اشتغل بالتاليف والتقييد من كتب التاريخ فلا شك انه ابتدأ هذا الكتاب بسجلماسة ثم اشتغل فيه بتلمسان ولاكنه لم يكمله الا فى هذه الفترة بدليل انه وصل به الى عام 1228.

هذا والترجمان على كونه مشبعا بهذه المواد التاريخية العالمية يقع في مجلد واحد فما احراه بالنشر والتعميم بعد التوفيق بين نسخه المتعددة ومقابلتها بتدقيق. وقد نشر منه المستشرق (هوداس) القطعة المتعلقة بتاريخ دولتنا العلوية مع ترجمتها الى الفرنسية سنة 1303 فياليت أصحاب المطابع ينتبهون لهذا الكنز الدفين فينفعوا وينتفعوا.

ثاني كتبه في الاهمية رحلته المسماة (الترجمانة الكبرى التي جمعت امصار المعمور كله برا وبحرا) فى مجلد واسمها كاف في معرفتها فهي جغرافية فى الاعم الغالب ولاكنها تحتوي على فوائد تاريخية وأدبية وتراجم مختلفة واعظمها ترجمه الكاتب نفسه وغير ذلك مما جعلها غير ذات خطة مستقلة ولا موحدة الموضوع كما يقول هو عنها بعد سرد برنامجها الجغرافي: «وفى كل مقام منها مقال، وفى كل روض منها مجال، حسبما يقتضيه الحال، ويخطر على البال، من نصوص قرآنية، وتاويلات تفسيرية، وأحاديث نبوية، وفتاوي فقهية، ومواعظ صوفية، وحجج قطعية، وادلة معقولية، وشواهد شعرية، وضوابط معنوية، واسامي لغوية، ونوادر سروجية، وقصائد عالية،

وما يناسب كل خبر ويؤيده، ويعتمد عليه ويعضده، وختمتها بنصوص من التوراة والانجيل والفرقان، للرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس من عبدة النيران»

وعلى كل حال فان هذه الاستطرادات وان كانت تفسد جمال الكتب فان لنا فيها معشر الباحثين فوائد جمة. وهاك مثلا هذه الاستطرادات التاريخية فى الرحلة فانها تعد تكميلا للترجمان الذي وقف به عند سنة 1228 بينما الرحلة لا تنتهي الا سنة 1233 بل انه سجل فيها بعض حوادث سنة 1234 و 1235.

ثالث كتبه المهمة تاريخ الدولة العلوية المسمى (البستان الظريف فى دولة اولاد مولانا علي الشريف) الفه لما لم يجد للدولة تاريخا مستقلا وكان لا زال تاريخ الكنسوس لم يكتب فان هذا منه اقتبس وعلى منواله نسج وكذا من بعده بالطبع، وهاك بقية اسماء كتبه باختصار:

4) ألفية السلوك فى وفيات الملوك، ارجوزة مرموزة وشرحها.

5) الحادي المطرب فى رفع نسب شرفاء المغرب وهو مستمد من الفصول التي كتبها في الترجمان خاصة بهذا الموضوع.

6) رسالة في سياسة الملك سماها (السلوك فيما يجب على الملوك)

7) رسالة دينية سماها (الدرة السنية الفائقة فى كشف مذاهب اهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة.

8) رحلة الحذاق لمشاهدة الآفاق لخصها من رحلته الكبرى.

9) جوهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان في الملوك العلويين واشياخ مولانا سليمان.

10) اباحة الادباء والنحاة الجمع بين الاخوات الثلاث، رحلة ثالثة

11) كشف الاسرار فى الرد على اهل البدع الاشرار.

12) تحفة الاخوان والاوليا فى صنعة السيميا.

13) كشف اسرار المحتالين الاشقيا الذين يزعمون علم الكيميا وتسمى هاتان الرسالتان ايضا رشف الحميا ونصيحة المغترين... الخ

14) بستان ويقال حلية الادباء والكتاب في مدح هذا الكتاب، يعني الترجمان وقد ضم هذه الرسالة لاخر الترجمانة.

15) ديوان شعر جامع لانظامه فى الاغراض المختلفة.

ولا يخفى ان بعض هذه الكتب مكرر للبعض الاخر فبقطع النظر عن هذه الرسائل التي موضوعها ديني بحت لا نجد صعوبة فى رد الفرع الى اصله من كل ذلك كالرحلة بن الصغيرة بن الى الترجمانة الكبرى وألفية السلوك وشرحها والحادي المطرب ورسالة السلوك الى الترجمان وهكذا ونذكر له بعض المؤرخين اسماء كتب اخرى وهي الروضة السلمانية فى الدولة الاسماعيلية وما قبلها من الدول الاسلامية، والتاج والاكليل في مآثر السلطان الجليل مولاي اسماعيل. فبعضهم يجعلها كتبا مستقلة بنفسها وبعضهم يقول انها نفس البستان الظريف واذما هذه اسماء اخرى له فبعض النسخ تكون حاملة لهذا الاسم وبعضها لذاك.

الزياني من اولائك الكتاب القلائد الذين تظهر شخصيتهم القوية بين سطور كتاباتهم عارية من كل تصنع بريئة من كل تزيد واذا كان يبالغ بعض الاحيان فى ادعاءاته لنفسه واتهاماته لغيره فانما ذلك من سذاجته واغتراره بظواهر الاشياء وربما كان لعدم تثقف قلمه وخشونة عبارته ولو كان مهذب حواشي الكلام لما وقع فى كثير من تلك الهفوات. ومما يدل على سلامة صدره وان تلك الحملات التي كان يحملها على كثير من اهل عصره انما هي فوارت نفسية لا تلبث ان تخبو ويذهب اثرها الى الابد، ما تجده فى رحلته الترجمانة بصدد الشيخ حمدون بن الحاج فتارة يمدحه ويحليه باغلى واحسن الحلى وتارة يقع فيه ويصليه من انتقاده نارا حامية.

وهو فى غالب الاحيان متنبه الشعور دقيق الاحساس فلا يمر بحادثة ولا خبر ولا تقع له واقعة الاعلق عليها بما يناسب واستطرد نظائر واشباها لها مما زاد فى قيمة تاريخه وجعله من التواريخ المهمة التي لا تعني بسرد الحوادث والاخبار مجردة عن النظر والتمحيص هذا مع اختصاره وجمعه لاقتصاره على اهم الاشياء واعراضه عن الحشو والامور الناقهة على انه في بعض المرات يسف اسفافامخجلا وربما كان مضحكا فيروي روايات تحمل فى طيها دلائل تزييفها كقوله

ان الكسكس مما صنعه طبيب الجان لسيدنا سليمان، وقوله هذا «وهذه المملكة ليس في الممالك كلها احسن من رجالهم ولا نسائهم ولا اكمل محاسن منهم في المعمور كله ولا اجمل اوصافا ولا اطيب خلوة ومضاجعة منهم ولنسائها من الحسن والتيه والظرف واللذة الزائدة الوصف التي لم توجد في نساء الدنيا ويبلغ الرجل منهم سن المائة وقوته في نفسه ومجامعته باقية. واذا جامع الرجل امراته فانه ننسى الدنيا وما عليها واذا بلغت المراة منهم خمسين او ستين او سبعين (الزيادة بالعشرات فقط) فلا تتغير محاسنها وتبقى على ما كانت عليه وهي ابنه العشرين. يافتاح يارزاق هب لنا من هذا!؟»

والى جانب هذه السذاجة الفطرية يثبت بعض ملاحظاته الصائبة فانه من اول من تحدث عن كره الترك للعرب واحتقارهم لهم وازرائهم عليهم في كل شيء مما ادى الى خروج العرب على الترك اخيرا كما هو معلوم. قال «ومن مساوى الترك مع دينهم واكرامهم للغرباء واهل البيت والعلماء بغضهم لجنس العرب كلهم وان كانوا غير عرب اذ مايتكلمون بالعربية او البربرية او الهندية يستخفون بهم ويحقرونهم ويهينونهم فهم مجبولون على ذلك متخلقون به خاصتهم وعامتهم في بلادهم وغيرها علماؤهم وامراؤهم واشرافهم فسبحان من ابتلاهم بذلك ولو بلغ العربي ما بلغ من العلم والشرف والصلاح ماعظم بين اعينهم، شاهدنا ذلك ببلدهم

وغيرها وبحضرة الملكة العظمى وكثيرا ما كنت اتحدث مع فقهائهم وامرائهم واجاريهم في الكلام على لسان الترجمان في كل شيء شيء ويثنون الثناء الجميل ويعترفون بالفضل لاهله ويذكرون ذلك بلغتهم — وكنت افهمها ولا اتكلم بها لاطلع على ما يخفونه مني واكون على بصيرة مع كل طائفة كنت بينها — فكانوا يقولون لله دره من رجل ما الطفه وما ادركه وما انسبه لولا انه عربي الخ.

وكذلك كان مما حمله على الحكام الترك والقضاة الشرعيين وسائر اهل النفوذ منهم اخذ الرشا والجور في الحكم واضاعة الحقوق واسف على ذلك اشد الاسف. ولما وردت له بضاعة الحرير بعد انتظاره سبعة شهور بالجزائر وكان اخذها قرحان النصارى فوجدها سالمة لم ينقص منها شيء قضى من ذلك العجب وكتب هذه الملاحظة التي قل من كان يعترف بها في ذلك الوقت الشديد الجهل والكثير التعصب. قال ولما فتحنا صناديقنا وحوائجنا وجدناها على حالها لم يفقد منها قلامة ظفر بعد النهب والانتقال، فانظر الى هذا الاحتراز وهذا الصدق الذي هو من شان المسلمين صار للكفار، ولو كان هذا الحادث وقع من عساكر المسلمين وتبين فيه التخليط والمسر ولاتهم برده ما بلغ على حاله بل لم يرجع نصفه ولا ربعه ويأخذ منه الحاكم والرئيس والمباشر لرده والعامل له والمتكلم فيه ولا

يحصل صاحبه الا على التلفه منه ولو كان في وقتنا هذا لا يرجع بالكلية وعلى فرض رجوعه ياخذه الذي تسبب في رده نسال الله العصمة والسلامة من ظلمات الجور ومنه وكرمه»

واسلوب الزياني في الكتابة كما تراه سهل واضح قريب من العامية وان كان في بعض المرات يحتفل احتفال بلغاء الكتاب فيقومه ويسجعه وان كان لا يستطيع ان يخلصه من اللحن الخفيف الشبيه بلحن كتاب الجرائد اليوم. وهذه احدى رسائله الادبية المنمقة كتبها للكمال الغزي بدمشق: احيي طلعة ذلك الهلال، المرقوب بسلامة من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا جمال وللدين كمال وللمستمعين فال، وللمعتمرين آمال، تحية صب معتكف على حبكم لا يبرح، وذي وجد بمحاسنكم لا يتكيف لعدم انتهائه ولا يشرح، ويستنجز منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ ارسلان، فقد كان في ذلك عليكم الاعتماد والتكلان، والله يتولى هداكم، ويفسح في بقاء مدتكم ومداكم، ولا تبخلوا عنا برؤيتك وانفسنا تفديك، ولا هتجعلنا بيضة ايديك، والسلام» ومن رسالة له الى الشيخ حمدون بن الحاج: «شيخ اهل الادب، وذخبة اشراف العرب، سيف الفقهاء، ولسان الخطباء، العالم المحقق، المشارك المدقق، الورع الزاهد المتخلق بأخلاق الافاضل الاماجد، الذي بمضاء عزمه هلماء الوقت يقتدون وبآرائه

السديدة يهتدون، محبنا الاجل السيد حمدون، لا زالت سيوف اقلامك قاطعة لحجج الملبسين وسهام فقرك راشقة لاهل البدع المبلسين وسلام الله عليك والرحمة والبركة، حالتي السكون والحركة» .. الخ

فالحق ان افكار الزياني ومعانيه معين لا ينبض وكنز لا ينفد، وفي الشعر بالخصوص ويا اسفى على الشعر لو توفق لاقامة اعاريضه وسلامة قوافيه لاتى بالعجب العجاب ولكنه كان ينظم نظم الفقهاء ويعرف ذلك من نفسه ويعترف به فلا نواخذه بما ليس في طوقه ولا نلومه على ما لا يد له فيه ولا ننس قول علمائنا في هذا الصدد:

انما الشعر سجية ... لا بعلم الخزرجية

وعلى كل حال فلا بد من رواية بعض الابيات من نظمه اذ اما للفائدة. قال في سفر البحر:

لو كل من ركب البحر اغتنى ونجا ... لم يبق في البر للانسان من سفر
او كل راكبه اصابه غرق ... فلا ترى عنه طول الدهر من خبر
خاطر بنفسك في الملا لتدركه ... وسل من الله حسن الظن في القدر
لولا مخاطرة النفوس ما ظفرت ... بنيل ما تبتغي في الدهر من وطر

وقال في تقديم الترجمان والبستان الى السلطان مولاي سليمان:

اتى سليمان يوم العرض هدهده ... بخبر من سبا ارض بها سيد
وقد اتيت باخبار الورى جملة ... شرقا وغربا سليمان اكن هدهده
فترجماني يفي بما وعدت به ... وبستان الملك فيه كل ما شيده
فان رضى عنهما نلنا المنى والغنى ... وان يعبهما لا عيب ولا موجده

وقال يخاطبه بسبب قطع الفتوى:

يامالكا يقضي بسنة الامين ... مؤيدا بعفو رب العالمين
نصيحة ترضي امير المومنين ... والعلماء وجميع المسلمين
قطع الفتاوي لم يكن بمرتضى ... ولم يقع في الزمن الذي مضى
وفي الحديث علماء امتي ... كالانبيا تبليغهم بفتوة
والله افتى الناس في الكلاله ... لما استفتوا لصاحب الرسالة
يالها من فتوة الرب الكبير ... افادت الحض على الفتوى كثير
كذاك قد صرح بالافتاء ... من بعد الاستفتاء في النساء

الخ .. وهكذا كان يسجل الحوادث المهمة في شعره ويرصد لها قلمه تاييدا وانكارا من غير خوف ولا وجل شان اصحاب النفوس الكبار، وذوي الغيرة من اهل الاخطار. فمما قاله في حدود عام 1248 مخاطبا السلطان مولاي عبد الرحمن في عزل واليه على فاس القائد الطيب الوديني، وقد كان الزياني في ذلك الوقت شيخا هما قد تجاوز المائة:

يامالكا لا يرى عزل الولاة ولو ... جاروا ولا يقبل الشكوى بواليه
فليس هذا بقانون الملوك ولا ... وقع في غربنا ولا في شرقيه
اخفض جناحك للشكاة والقهم ... واسمع كلامهم واعمل بما فيه
لا تعتمد في مظالم على حاجب ... ولا وزير فوالي الجور يرشيه
قد جاء في الذكر لعن الظالمين غدا ... وفي الحديث الذي تتلو وترويه
وانت وليت هذا العبد مفترسا ... سبع سنين وكل الناس تشكيه
ياكل اموالهم يهتك اعراضهم ... يزني جهارا ولا يخاف باريه
فكل افعاله تكتب في صحف ... عليك يابن رسول الله فادريه

وفي المعاد ترى الصحف منشرة اليك بالذي كان يجبى ويخبيه
فما تقول وما عذرك يامـلكـا مع الاله الذي ولاك تكفيه
فانظر لنفسك اودعها على غرر فالموت ياتي على كل ويفنيه
والله ما قلت ذا بغضا ولا فندا الا نصيحتكم لله فاقصيه
ان لم ترد عز له فالله يهلكه عما قريب ورب البيت يحميه
اذ ليس لي ناقة في ذا ولا جمل فسل تجد صدق ما قلت لكم فيه

نعم بقول هذا الزياني الشجاع القوي النفس المخشى الباردة في سنة 1248 وهو في سن المائة والواحد على حافة الموت، فما اعجب امره واشد اسره! وبعد ذلك بعام واحد عصر يوم الاحد 4 رجب 1249 كانت هذه النفس الكبيرة قد فارقت العالم واستراحت من متاعب الحياة وامنت من ملاحقة النكبات وذلك عن مائة واثنتين من السنين حكما يجب ان يكون لولادته على ماتقدم في عام 1147 ووهم صاحب السلوة ومن تبعه فقال عن ست سنوات.

فاذا كنت ايها القاري بفاس فاقصد الحي المعروف بالسياج وفي الزاوية الناصرية الموجودة هناك بالصحن المتصل بالقبة حيث يرقد الكاتب العظيم قف قليلا بخشوع واقرا الفاتحة لتلك الروح الكبيرة عن اول مغربي وفاها حقها بعد قرن كامل من الزمن!